

مأزق المترقب

الكاتب: إبراهيم السكران



أزمة الإنسان المترقب

الحمد لله وبعد،،

واضعاً يده على ذقنه يتفرج باهتمام بالغ على مشروعات العلم والدعوة والثقافة والحقوق تتسابق فعالياتها بين ناظره.. هو يعرف أسماءها جيداً.. وفي أيام مضت تواصل مع بعض رجالات الإنتاج في هذه المشروعات.. بل له الآن علاقات طيبة مع بعضهم.. وبحوزته أيضاً رقم الهاتف الخاص لبعضهم.. كما أن أحدهم دعاه يوماً لمجلس ضم بعض هؤلاء المنتجين.. بل هو لا يزال يتذكر أنه أرسل لبعضهم رسالة جوال أو بريد إلكتروني ورد عليه.. لكنه إلى الآن ليس جزءاً من أي مشروع.. ولم يبدأ الخطوة الثانية في أي حلم سبق أن فتح له ملفاً في جهازه المحمول..

هذه أزمة الإنسان المترقب.. الذي تلملت من جلوسه مدرجات المتفرجين.. ومازال متفرجاً..

الإنسان المترقب قد يكون يرفل في ربيع العمر ويحرق سنواته الذهبية بلا مبالاة من يشعل سيجارة لصديق وضع يده على جيبه ولم يجد ولا عته.. وأخذ ينفث الزمن في الهواء.. الإنسان المترقب حدث تحول مهم في حياته، كان يتابع الجدل والردود المتبادلة ونقائض التيارات عبر المنتديات الإلكترونية، ثم صار اليوم يتابعها عبر شبكات التواصل، هذا كل ما في الأمر..

الإنسان المترقب قد يكون في المسجد يراجع حفظاً أو يذكر الله.. فتتسلّ يده لجواله وينقر أيقونة شبكات التواصل.. ويخرج من المسجد وهو فيه.. أتى

إلى المسجد لتغذي روحه العطشى لذكر الله.. لكنه دخل المحراب بجسده
ثم قذف بروحه في العراء خارج الأسوار..

هل هذا يعني أن الإنسان المترقب هو كائن معزول الإحساس بالزمن؟ هل
المترقب عديم الأحلام والطموحات؟ لا، بل هو يتحرق كثيراً ويتمنى أن يصنع
شيئاً لنفسه وللآخرين، ولكنه واقف كالمشلول.. لماذا؟ المترقب ذاته لا
يدري..

حين يكون المترقب في مجلس ذكر عن قيام الليل تشتعل همته للمناجاة في
هزيع السحر، وحين يكون المترقب يستمع لدرس عن فضل العلم ومناقب
المعرفة يكاد يمضغ ذاته حماسةً ويتخيل نفسه قد حبس عليه غرفته بين أرفف
مكتبته.. لكن ما إن يتجاوز لهيب الحماسة حتى يتبدد كل شيء ويعود لذات
برنامجه اليومي في التفرج على المنتجين..

ترحيل المهام

لدى المترقب مشكلة يمكن تسميتها مشكلة "ترحيل المهام" فحين كان
المترقب في المرحلة الثانوية كان يحدث نفسه بأنه إذا انتقل للجامعة وصار له
استقلال وحرية أكبر فسيبدأ مشروعات علمية وعملية.. ولما بدأ الدراسة
الجامعية صار يقول لنفسه متى ينتهي ضغط المذكرات والبحوث وتحضير
المحاضرات والاختبارات وتبدأ مرحلة المهنة وأتفرغ لمشروعاتي العلمية
والعملية؟!

وهو يقولها صادق، ولما بدأت مرحلة المهنة أصبح يقول لنفسه بعدما أنتهي
من هم الزواج والمسكن والاستقرار المادي سأبدأ بإذن الله تنفيذ خططي
وأحلامي العلمية والعملية، ثم انخرط في مسؤوليات الأسرة والأبناء
ومتطلبات المهنة، حتى طوّح به العمر خارج الموسم الذهبي للإنتاج، وصار
يقول لنفسه ذهب وقت التحصيل والبناء "وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر"..

وهكذا أحرق المترقب عمره عبر آية "ترحيل المهام" ..

الهروب النفسي

يشتكي البعض ويقول أن شبكات التواصل أو تصفح الانترنت جذاب ويشغلني عن مشروعات علمية كثيرة، ربما يكون هذا الكلام يتضمن توصيفاً دقيقاً للمشكلة، ولكن لي رأي آخر، رأي أن كثيراً من الملهيات عن العلم والعمل ليست جذابة أصلاً، وإنما هي في حقيقتها وسيلة "هروب نفسي" عن المهام الواجبة.. ألا ترى أنك أيام الاختبارات تدع المذكرات وتقرأ بعض الكتب التي كنت منشغلاً عنها خارج الاختبارات؟ ألا ترى أنك إذا بدأت بكتاب في علم معين، صارت نفسك تحدثك بمطالعة كتاب في علم آخر لم تكن لتطالعه قبل ذلك؟

صحيح أن حالة التفرج والترقب هذه فيروس خطر يهدد حياة كل واحد منا، لكن الشاب الذي يعيش المرحلة الذهبية للتحصيل العلمي هي في حقه أفضح وأكثر خطورة، فقد أصبح كالمزارع الذي نام على البذور حتى فات الموسم.. فالمرحلة الذهبية للتحصيل العلمي هي مرحلة الذروة في قوة الملكات.. وأي غبن أن تبدأ المعركة بعد أن تخور قواك..

إدراك شرف الزمن

ومن تأمل الليل والنهار الذي نعيش فيه، وكيف نتقلب في أيامه، ثم رأى قسم الله سبحانه بهذا الزمن (والعصر) امتلاً قلبه بإدراك شرف "الزمن" .. وأنه في كل ثانية ودقيقة وساعة ينفق من (رصيد زمني) منحه الله إياه وكتبه الملك حين كان جنيماً عمره أربعة أشهر.. لا شيء ساكن في حياتك.. أنت في كل لحظة تنفق من رصيدك الزمني.. فإما أن تشتري به علماً وعملاً رابحاً.. أو يذهب في الترقب والتفرج في صفقة خاسرة..

وأزمة الخسارة والغبن في استثمار هذا الرصيد الزمني هو الذي أشار له الحديث الذي رواه البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ) [البخاري: 6412]

الحالة السبيلية

ويبدو أن هذه الأزمة، أعني أزمة الترقب والتفرج قريبة من (الحالة السبيلية) التي وصفها الفاروق عمر بن الخطاب في الأثر المروي عنه (إني أكره الرجل يمشي سهلاً، لا في أمر الدنيا، ولا في أمر الآخرة).

وهناك منظومة في الآداب مشهورة لابن عبد القوي رحمه الله، جمع فيها في بيت واحد حديث البخاري وأثر عمر، حيث قال رحمه الله:

ولا يذهبن العمر منك سهلاً** ولا تغبنن في نعمتين بل اجهد
ومن أكبر عوامل الحالة السبيلية هي مشكلة "التقطع" ومرض الترحل في
أنصاف المشروعات.. ولعلك تتذكر أن العلامة ابن عثيمين يمثل مشروعاً
فقهياً مكتملاً.. فبالله عليك لاحظ كيف يشرح فكرة نبعت من خبرته الطويلة
حيث يقول في كتابه الذي جمعه من خطبه وسماه الضياء اللامع:

(وإن من الحكمة أن من ابتداءً بعمل وارتاح له فليستمر عليه،
فمن بورك له في شيء فليلزمه، وبعض الناس يبدأ الأعمال ولا
يتممها، فيمضي عليه الوقت سهلاً من غير فائدة، فمثلاً يقرأ
في هذا الكتاب أو في هذا الفن، ثم يدعه من غير أن يكمله،
وينتقل إلى غيره، ثم إلى آخر، من غير تكميل الأول، فيضيع
عمله وينقضي عمره بلا فائدة، وكذلك في الأعمال الأخرى كل
يوم له عمل، وكل يوم له رأي، فيضيع الوقت عليه من غير
فائدة).

هذه حكمة عصرتها الخبرة يشرحها فقيه حدد هدفاً علمياً رفيعاً وبلغه فعلاً..
وليست نظرية يتاجر بها منتسب لعلم النجاح في قاعات الفنادق..

المماحكات التويتيرية

ومن الظواهر المثيرة للغرابة فعلاً، أن أزمة المترقب لم تعد مقتصرة على إحراق الوقت في متابعة الجدليات والمناقضات عبر شبكات التواصل، بل أصبحت مثل هذه المماحكات التويتيرية مادةً للحديث في بعض مجالس الأخيار، رد فلان على فلان بتغريدة قوية، وتفكّه فلان على فلان بتغريدة مضحكة، وقصف فلان جبهة فلان، وهكذا، يا ضيعة الأعمار.. ويا سقى الله أياماً كان المجلس فيها نقاشاً عن ترجيحات ابن تيمية ومسلقيات ابن القيم ومنهج المتقدمين في الحديث وفقه المعاملات المعاصرة وأخبار القوم من سير النبلاء..

حدثت نتوءات في لا وعي المترقب، وبثور في ذوقه، وترهل قدراته الذهنية؛ تزامنت مع متغيرات نظم الاتصالات الحديثة.. ففي بداية فتوة المترقب كان يحضر بعض الدروس المتخصصة ويقراً بعض الكتب الراقية في لغتها ومحتواها.. وبعد أن لبس المترقب نظارة شبكات التواصل، وأدمنها، كثرت تبعاً لذلك قراءته للتلفظات السوقية والمخاشنات الحوارية.. حتى تدهور ذوقه وتدخلت تلك الروح الجمالية التي كانت تلهمه في النظر لذاته ولمن حوله، واستسهل من النابيات ما كان يشمئز منه..

التأثر بطبيعة المادة المقروءة

وكثير من الناس يظن التأثر هو بمدى القناعة بالمقروء من عدمه، وهذا غير

دقيق، فنمط المادة المقروءة ونوعها إذا كثر يؤثر في القارئ دون أن يشعر حتى لو لم يكن مقتنعاً بها، ولذلك قال أبو العباس ابن تيمية (من أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع، ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم، لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير) [الاقتضاء: 1/543]

وكما كانوا يقولون للمسافر للخارج "احذر المرأة الأولى والكأس الأول"، فما أقرب أن يقال للمنخرط في شبكات التواصل "احذر الشتيمة الأولى"، ولقد رأيت إخواناً لي كانوا من أبعد الناس وأكثرهم نفوراً عن الردود الفجة والكلمات النابية، ثم مع كثرة تعرضهم لمناقشين غير راقين، تساهلوا مرة في رد خشن، ثم تبعها أمثالها، وذهب الحاجز بينهم وبين هذه الأساليب، وصرت إذا ناقشته في أسلوبه الجديد قال لي "هناك أناس لا يفهمون إلا هذه اللغة" فانظر كيف وقع في سلوك جديد شرعنه لنفسه لم يكن ليقع فيه مسبقاً بسبب كثرة جلوسه في طرقات شبكات التواصل وتعرضه المستمر لتدفق ردود بمستوى هابط..

القدرات الذهنية

وهكذا القدرات الذهنية فهي ليست شيئاً مختلفاً كلياً عن القدرات البدنية، بل كثير من القوانين التي تجري على القدرات البدنية تجري ذاتها على القدرات الذهنية، ومنها قانون (اللياقة)، فعضلات الجسم تترهل وتضمحل إذا لم يمارس الإنسان التمارين البدنية، وهكذا القدرات الذهنية تضمحل وتضعف إذا لم يمارس العقل المران الذهني العميق، ولذلك كان لفظ الرياضة في التراث الإسلامي يشمل ثلاثة مستويات: البدن والذهن والنفس، كما يقول ابن تيمية في الرد على المنطقيين (لفظ الرياضة يستعمل في ثلاثة أنواع: "رياضة الأبدان" بالحركة والمشى، و"رياضة النفوس" بالأخلاق الحسنة، و"رياضة الأذهان"

بمعرفة دقيق العلم والبحث عن الأمور الغامضة).

وكانت رياضة الذهن وتمريبه وبناء القدرات العقلية مسألة حاضرة لدى المتقدمين من السلف كما قال ابن تيمية في كتابه السابق ذاته (كان كثير من علماء السنة يرغب في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة كالجبر والمقابلة وعويص الفرائض والوصايا والدور: لشحد الذهن).

والمراد أنه إذا طال فراق المترقب للكتب والبحوث الدقيقة وتوليد المفاهيم وتمحيص الاستدلالات وحل الإيرادات، وصار زاده المعرفي تغريدات أفقية، وطالت هذه الحال، ضمرت قدراته الذهنية، بل يتطور الأمر إلى حالة أخطر، وهو كونه ينفر من المسائل العلمية الدقيقة وينفذ وقود احتماله وطاقة التركيز لديه، ويصبح عقله يعمل بنظام الوجبات السريعة..

أخي المترقب.. أنا ناصح لك، وأحب الخير لك، صدقني أنت تحتاج التوقف سريعاً وتغيير نمط حياتك، وأسأل الله أن نرى منتجاتك العلمية والعملية قريباً، والله يسددك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه،،

الكلمات المفتاحية:

#إبراهيم-السكران

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.